البحث السّيميائيّ
باعتباره فينومينولوجيا معرفيّة

آمنـة بلعلى

جامعة مولود معمري

تيـزي وزو - الجزائر

1. الدّلالة والنّصّ من أجل نظريّة سيميائيّة

في الوقت الذي كانت فيه الدعوات على أشدها إلى الدراسات المحايثة في أوربا؛ حيث كان الاهتمام بالنسق المغلق يطرح مفاهيمه وآلياته الإجرائية، التي ساهمت في تشكيل مجد البنيوية، كان «رولان بارث» وجوليا كريستيفا يؤسسان لما يسائل هذا المجد، ليس بالقضاء عليه، ولكن، بطرح منظور مغاير يلغي التقوقع والانغلاق والثبات. وكان ذلك في ظل الدعوة إلى علم السّيمياء الذي جعله دوسيسير أعم من اللسانيات.

وانطلاقا من قصور النموذج اللساني عكفت جوليا كريستيفا على صياغة رؤية شاملة تأخذ بعين الاعتبار النسق والبنية وتتبنى العلمية ولكنها في الوقت نفسه تطل على الخارج الواسع، وتؤكد على دوره في رصد الدلالة الغزيرة للأنظمة السّيميائيّة المختلفة، ومثلما راح بارث ينهل من النموذج اللساني ثنائياته المعروفة كاللسان والكلام والدال والمدلول

والتركيب والاستبدال، والشكل والمادة ليجعل منها نموذجا لوصف هذه الأنساق وتأويلها، ثم ليوسّع في التصور اللساني ويستقي منه آلياته في وصف الأنظمة المختلفة، راحت كريستيفا تبدي تذمرها من ضيق هذا النموذج ومن الطريقة التجريدية التي تتبناها البنيوية، وتعرض نظرة وتصورا أكثر رحابة باللسان نفسه، من خلال النص باعتباره ممارسة دالة، وسعت -من منطلق هذا الوعي- إلى البحث عما يمكّنها من وضع منهجية خاصة أسمتها السيمانااليز semanalyse تقوم عليها النظرية السيميائية التي تنفتح على مجالات معرفية كثيرة كالفلسفة والمنطق وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم اللسان والرياضيات، كما تنفتح أيضا على التطورات التي تلحق بهذه المجالات مما يعطي إمكانية للتطور في نقد الفكر والأدب عامة.

ترى «كريستيفا» أن التمركز حول اللسان باعتباره وسيلة تواصل، وإنكار أن تكون اللغة حمالة معان مثلما يحدث في الأدب من طرائق الاشتغال باللغة، هو ما يجعل منا غرباء عن اللسان[1] من خلال غربة النص عنّا حينما لا نعي أنه اشتغال على اللغة وله دور اجتماعي وتاريخي ومكانة ضمن الممارسات الدالة، ولعل المهمة الملقاة على عاتق علم السّيمياء هي أن تسجل في النص «مواقع قوته وتحوّله وصيرورته التاريخية وأثره على مجموع الممارسات الدالة»[2].

ومن أجل تجاوز النموذج اللساني المغلق الذي يهتم بالجملة، تطرح جوليا كريستيفا مفهوم النص باعتباره ممارسة دالة خاصة تؤثر على باقي الممارسات الدالة، ولا يخضع لممارسات اللسان الذي يشتغل أساسا بإعادة قوانين الدلالة، ليس باعتباره جملا معزولة، بل ممارسة دالة وإنتاجا يساهم في تحريك الواقع وتحويله[3] مثلما يساهم في تأسيس نظرية سيميائية يكون عمادها دعائم إنشاء علم خاص بالنص على غرار العلم الذي أنشئ للغة. ولذلك جعلت كريستيفا التفكير في إنشاء علم خاص بالدلالة مشروطا

بإدخال النص إلى مجال اهتماماته، بل إنه لا يمكن الحديث عن سيميائية أدبية دون أن يكون النص محور الاهتمام، لأنه لا يمكن الحديث عن الدلالة، دون الإمساك به وبعلمه، وذلك من أجل «بناء نظرية معرفية مادية»[4] نتجاوز بها الطرق التقليدية التي احتوت النص باعتباره موضوعا خصوصيا كالدين وعلم الجمال وعلم النفس، لنتساءل عن مكانته ضمن الممارسات الدالة، وعن قوانين اشتغاله ودوره التاريخي والاجتماعي، وهي الأسئلة التي تطرح على السيميائيات من أجل إنشاء كلية مفاهيمية قادرة على الإحاطة بالنص.

ترى كريستيفا أن أي دراسة تقوم حول النص يجب أن تقوم على تحليل الفعل الدال، أي تنظر إليه ليس باعتباره «مجموعة من الملفوظات النحوية أو اللانحوية، إنه كل ما ينصاع للقراءة عبر خاصية الجمع بين مختلف طبقات الدلالية الحاضرة، هنا داخل اللسان، والعاملة على تحريك ذاكرته التاريخية»[5].

لا شك أن جوليا كريستيفا كانت تهدف، في مرحلة كان النموذج اللساني مهيمنا، إلى إنتاج معرفة بالاشتغال النصي كخطوة أولى لإنشاء سيميائيات، سيكون على عاتقها دراسة سائر الممارسات الدالة كالفن والأخلاق والاقتصاد باعتبارها أنظمة مشكلة مثل النظام اللغوي، ومن ثم فهذه الممارسات ستكون قابلة لكي تدرس كنماذج ثانوية بالنسبة للغة الطبيعية[6].

2. السّند النّظريّ للبحث السّيميائيّ

لقد أسست بحثها المعرفي هذا انطلاقا من إدراك مغاير للعلامات اللغوية، واشتركت مفاهيم ومصطلحات متعددة ومحملة بخلفيات معرفية متنوعة في صياغة جهازها المفاهيمي، فتتشابك أحيانا ويأخذ بعضها بزمام بعض، وتتباعد في أحيان أخرى حتى يتمّ الإلمام بعوالم نظريتها هذه

التي بدأت فيها لسانية ثم متجاوزة الإرث اللساني وداعية في إطار ما سمي بالنقد الجديد، وجماعة "تال كال" (Tel-quel) خاصة، إلى تجديد الكتابة الأدبية، فمعلنة عن قبضتها على ثورة اللغة الشعرية التي بلورت من خلالها قطيعتها للنقد الغربي ومراجعتها لمعظم طروحاته، مؤسسة من خلال كتبها الكثيرة التي اختزلت فيها كلّ الاتجاهات والتوجهات، نظرية سيميائية وصفت بالصعبة تارة وتارة بالمادية، وأخرى بالشعرية. وارتبك من نقلوا بعض نصوصها إلى العربية في نقل مفاهيمها ومراجعتها في النظر والتحليل، والأهداف التي انطوت عليها، واستغلقت ليس على القارئ العربي فحسب بل على القارئ الغربي أيضا.

ومن أجل رفع هذا الاستغلاق، تجدر الإشارة إلى الظرف الثقافي الذي قيدت فيها كريستيفا طروحاتها وخاصة انتماءها إلى جماعة "تال كال" وهي وإن لم تشترك كليا في وسائل مقاربة الدلالة والنص والعلامة مع بعض المنتمين إلى الجماعة والذين نشطوا في مجلتها مثل "رولان بارث" فإن الأهداف كانت نفسها، وإن تفرقت السبل بعد ذلك ببارث فانتهى مبدعا ناقدا وظلت هي محافظة على صرامتها مما يجعلها تصنّف ضمن المنظرين في مجال البحث السيميائي.

إن الظروف التي رافقت ولادة أفكار جوليا كريستيفا السيميائية منذ منتصف الستينات حين دخلت إلى جماعة تال كال محملة بمفاهيم الشكلانيين الروس ومصطلحاتهم وخاصة باختين، هي نفسها التي جعلت بارث يدعو إلى إعادة النظر في النقد والإبداع ليؤسس لبلاغة جديدة، وهي ظروف لوّنت الثقافة الفرنسية بطابعين يدعو أحدهما إلى الوراء، فيما يرنو فيه الآخر بأصحابه إلى التغيير، وضرورة إعادة النظر في الكتابة، وفي النقد، وهو تغيير بدا من خلال ما أثاره من صراعات، ذا طابع إيديولوجي وأحيانا سياسي؛ لأن الذي يميّز ثقافة ما تجسّد من خلال وسيط إعلامي

كمجلة تال كال واختيار النشر فيها أو الانتماء إلى أي جماعة أو فئة ثقافية ما، يعني، في الغالب، الارتباط بتوجه إيديولوجي أو سياسي معيّن حتى وإن كانت الأهداف ثقافية صرفة. (نذكر في هذا الشأن توجهات مجلة شعر، والآداب والثقافة الوطنية في فترة الخمسينات والستينات عند العرب).

وبغض النظر عن هذه التوجهات الإيديولوجية والسياسية، فالمؤكد أن ولادة مجلة تال كال ترافقت مع موجة تيارات نقدية كانت في فرنسا بمثابة البوصلة لما في بداية الستينيات. فقد كان ثمة تراجع في أوساط المثقفين اليساريين الذين أشاحوا عن الستالينية بوصفها إيديولوجية قمعية وتعلقوا بنقائضها العقائدية، على الرغم من أنهم لم يمتلكوا اجتهادات واحدة على مستوى الجمالية والسياسة والفلسفة ولعل هذا ما يفسر تعهد هيئة تحرير المجلة بالتشديد على كتابة الخيال وبلورة عالم فلسفي يتحرك فيه الخلق[7] هذا العالم الذي يمكن أن نلخص من خلاله الهدف الرئيس من البحث السيميائي لدى كريستيفا، حيث شدّدت على كتابة الخيال، في كل مجالاته، وركزت على اللغة الشعرية، وأسست اتجاها يمكن أن نقول عنه إنه اتجاه فلسفي، ما دامت الفلسفة قد تحوّلت إلى موقف يتحرك فيها بحثها السيميائي. ويتمثل الموقف الفلسفي هذا في طروحات لينين وماركس وأفكار ماوتسي تونغ الفلسفية والجمالية ومعطيات التحليل النفسي، وأفكار جاك لاكان، خاصة، كما أنها استقت من الشكلانيين الروس ومن اللّسانيات طرائق الغوص في الأبعاد الواعية واللاواعية للفكر والإبداع، كتجسيد للعمليات الاستبدالية للأفكار الجدلية المادية بالطروحات اللاهوتية، نظرا للانقسامات التي حدثت في اليسار الفرنسي بعد 1968 خاصة. وهذه العمليات الاستبدالية واكبتها على المستوى الثقافي وخاصة عند جماعة تال كال عمليات بحث عن بدائل على مستوى الإبداع والفكر والنقد.

ولقد تكوثرت هذه البدائل عند "بارث" إلى درجة استعصى معها إدراجه ضمن توجه معيّن. لقد كان ثمة حاجة «لتأسيس ثورة تحل مكان رمزية التعبير، شكل المطالعة، أو المونتاج الفوتوغرافي أو في استقراء العلامات، كما أن النص يحلّ محل النتاج والقارئ مكان المؤلف»[8].

ولعل كتاب كريستيفا "بحوث في التحليل الدلالي" (Recherches pour une sémanalyse) يتضمن من السعي نحو بدائل في كل الاتجاهات، وبطريقة سريعة، ما يعكس التحرّك المهوس للبحث السيميائي، الذي يشبه ذلك التحرك الذي اشتغل من خلاله بورس في نهاية القرن التاسع عشر بمراجعاته للمعرفة الفلسفية التقليدية ومناهج التفكير، السّابقة، مما يعني أنه شكّل جزءا في المنظومة الثقافية التي سادت في ذلك الوقت.

وكذلك كان «بارث» و«كريستفا» يتحركان في إطار ثقافة "تال كال" الذي كان الحراك النقدي الموجّه من قبل المنتمين إليها ذا طابع ثقافي يجسد لحظة قلق في الثقافة الفرنسية دام لمدة عشرين سنة من التأسيس 1960، إلى التوقف 1980. وتتجسّد باعتبارها مواقف أكثر منها أنساقا مماّ يبعدها عن الفلسفة أو يجعلها مجرّد مواقف فلسفية.

إذا كانت سميائية بارث تتمثل في بلورة نقد جديد وعلم جديد، والكشف عن انشغال أنظمة دلالية نحيا بها وفيها ولا ندرك دلالتها، فإن الحديث عن سيميائية كريستيفا يتمّ برصد عملية إنتاج المفاهيم والمصطلحات ذاتها، والمنهج الذي رسمته بالتحليل الدلالي، ودور كل ذلك في صياغة نظرية سيميائية وممارستها. وذلك ما وصفه بارث بقوله إنه «الخطاب المتناسب مع النظرية التي يفصح عنها، وهذا التناسب هو النظرية ذاتها، إن العلم في ذاته كتابة، وإن الإشارة حوارية، وأماّ الأساس فهدم، وإذا بدا هذا الخطاب صعبا بالنسبة إلى بعضهم... فذلك لأنه (...) أولا : يؤكد ويمارس في الوقت نفسه الصياغة وانزياحها (...) وثانيا: إنه يتحمل باسم النظرية

الانزياح المصطلحي للتعريفات المسمّاة التعريفات العلمية (...) وتمتلك الكتابة عند كريستفا استطرادا، وتطورا... كما تمتلك صياغة وإدهاشا وإنتاشا في الوقت نفسه. وإنها لتمثل خطابا يعمل أقل لأنه يقدم فكرة من كونه يعمل لأنه ينتجها ويخصصها مباشرة ومن غير وساطة الكتابة، وهذا يعني أن جوليا كريستفا هي الوحيدة القادرة على صنع علامية الدلالة»[9].

إن علامية الدلالة أو سميولوجيا الدلالة التي ينسب بارث -متواضعا- صنعها لكريستفا، كان قد وضع لها أسسا وشيّد لها عمارة عرفت كيف تتفاعل هي معها، وبأدواتها التحليلية التي استعملتها من باختين والتحليل النفسي، والمادية الجدلية استطاعت أن تصنع هذا الاختلاف الذي جعل بارث ينسب لها هذا الاتجاه السيميائي، وتنازل عما فعله اعترافا لها بالصرامة النظرية.

مبدئيا يمكن الإقرار أن الموضوع الذي بدا موجّها أساسيا للبحث السيميائي عند كرستيفا، هو النص باعتباره معرفة، والمعرفة تقتضي علما تقول عنه إنه تقاطع مختلف العلوم، مماّ يعني صلاحيته لدراسة بقية المعارف والأنساق الدالة المختلفة، وهو ما رآه بورس حين بدا له أنه لا يمكن دراسة أي معرفة إلاّ سيميائيا.

وهي منذ بدايتها، حين حلّت بباريس طالبة محمّلة بأعمال باختين وتراث الشكليين الروس، بدت وهي تتردد على دروس غولدمان وندوات بارث متجاوزة الشفوية. نظرا لاهتمامها بالنص الذي لا يقصي لا التاريخ ولا الكاتب، مستندة إلى باختين في القول بتعدد الأصوات نابذة مفهوم الانغلاق، باعتبار النصوص الأدبية المنغلقة على نفسها يتناقض مع طبيعتها القائمة على الحوار والحجاج والإقناع والمجادلة[10] ولذلك كانت وكأنها تستلهم النظرية من النظرية ذاتها، وتساءلت عن جدوى قيام سيميولوجيا إذا لم تقم بوصفها نقدا للسيميولوجيا [11].

في كتابها "بحوث في التحليل الدّلالي" كان الهدف الأساسي لها هو تجاوز النموذج اللساني، وصياغة نظرية بديلة تتجاوز التحليل البنيوي للنص باعتباره بنية سطحية، لتقف معها في كتابها ثورة اللغة الشعرية عند النص كممارسة تعبيرية هادفة، استمدت دلالتها من جهة، من المفهوم الماركسي الذي يرتبط بالممارسة الاجتماعية في جانبها الثوري، حيث يبدو النشاط البشري هو أساس المعرفة، ومن جهة أخرى، من الماوية التي تربط الممارسة بالتجربة المباشرة والجانب الذاتي؛ أي الصراع الذي تمارسه الذات استنادا إلى التجربة فيتولّد الموضوع الجديد وهذا يعني أنه في الممارسة يتحقّق مفهوم السيرورة الدلالية.

لقد رأت أن الدراسة المحايثة التي تعمل على وصف مواقع الاختلاف بين الأدلة ليست كافية، ولذلك فهي تشترك مع بارث في اعتبار علم اللغة يساهم في بناء علم السيمياء، لأن اللغة نظام من العلامات تشترك مع كثير من الأنظمة والظواهر الدلالية.

لقد كانت في بحوثها الأولى تتحسّس إمكانية قيام سيميائيات عامة باعتبارها علما شموليا، يتوسّل بأدوات صارمة يخترق الممارسات الدالة الخفية الموضوعة على حافة الثقافة الأوربية، وكذلك المعلنة للغوص في مظاهر الفكر المختلفة، ورصد علاقاتها من خلال الخوض في دراسة السحر والتنبؤات والديانات والموسيقى والرسم والطقوس التي تخضع لها ظواهر الفكر وذلك انطلاقا من إشارية لغتها، وبعيدا عن كل فكر أو ثقافة مثالية مشحونة بالإيديولوجيا[12].

ولعله واضح أن الدلالة كذلك هي النسغ الثاني الذي وجّه طروحات كريستفا، من أجل صوغ سيمياء تحليلية (sémanalyse) لا تكمن وظيفتها في رصد المدلول واستنباطه، بل في الكشف عن حركة الاستبدالات في

النص باعتباره ممارسة داله، أي تدليلا (signifiance) والحركة هي ذلك التوالد اللانهائي الذي تتّخذ الدلالة من خلاله مسارا يمر عبر ثلاث مراحل تسمّى الأولى : la phase thétique وهي المرحلة السابقة لعملية التلفظ، يكون المعنى فيها مادة دون شكل على حد تعبير «هيالمسلاف» أو la chora بمصطلح أفلاطون وhyléبمصطلح Husserl وفيها تكون الدلالة في مرحلة الفرضية، ثم تأتي المرحلة الرمزية، وهي مرحلة تجسيد مختلف الدوافع "Pulsions" التي تنتظم -أثناء المرحلة الأولى- بواسطة عملية التلفظ بالرموز اللغوية في شكل تمليه ضغوطات المجتمع والأسرة، فتتعرض للكبح البيولوجي والاجتماعي، ويحدث نوع من الانفصال، وتتأسس علاقات سرية بين المواد القابلة للسميأة في صورة استعارات "Sujet parlant"، ولا تصبح الذات المتكلمة فاعلا في الممارسة النصية أو في السيرورة الدلالية، أي العبور إلى المرحلة السميوطيقية إلا بعد اجتيازه المرحلة الرمزية، وإذا ما تم له ذلك يندمج في البنية الاجتماعية ويصبح عالم الدلالة عنده مسميأ (Sémiotisé) في شكل يسمح له بالتواصل[13].

إن هذا الطرح النظري الذي يستند إلى التحليل النفسي الفرويدي وإضافات جاك لاكان، والذي شرحت من خلاله ظاهرة التدليل (Signifiance) عبر اللغة وداخلها، هو ما يجعل اللغة متعة وثورة، وفي الوقت نفسه تتجاوز الطرح اللساني الذي يعتبر اللغة موضوعا شكليا (Objet strictement formel) لكنه سمح لها ومن خلال الاتجاه اللّساني الذي يؤيد العلاقة الاعتباطية بين الدال والمدلول باعتبارها علاقة معللة استنادا إلى التّحليل الفرويدي للاشعور، والاتجاه الذي يعنى بالعلاقات بين المخاطبين والذي ينفتح على علاقات عبر لسانية تتجسّد في البنية العميقة للغة. لقد سمح لها إذن، شرحها لعملية التدليل استنباط السيميائي (le sémiotique) والرمزي (le symbolique) وهما مرحلتان تعتمد عليها كل الأنظمة الدالة.

غير أنها ترى الدلالة ليست هي المعنى، فما هو إلا نواة تشترك فيه حسب هيامسلاف مختلف اللغات في اللغة المنطوقة، وهو بالنسبة لها مثل حبات الرمل التي تتخذ أشكالا مختلفة. فالسحاب الذي يغيّر أشكاله باستمرار، يشبه المعنى الواحد الذي يتخذ أشكالا مختلفة[14].

إن المرحلة السيميائية بهذا المعنى لا تبدأ إلاّ إذا تم خرق المرحلة الأولى وتشكّل الرمز يقوم على آليات كالإزاحة والتكثيف (Condensation et déplacement) مما يسمح بالمرور من نظام إلى آخر، وهذه النظرة المعمقة لمفهوم السيرورة الدلالية لم تتسن لها إلاّ في كتابها ثورة اللغة الشعرية، حين استندت لمفهوم النص باعتباره وحدة للبحث «بكثافته وتفاوت علاماته والنواميس المرنة والصارمة التي تتحكّم بنسيجها الداخلي وما يعتلج في شرايينه وأنسجته ومستوياته»[15]. في حين نجدها في كتابها الأول تستند على المفهوم الماركسي الذي يستبدل مفهوم الإبداع والخلق بالإنتاج، منظورا إليه من زاويتي سيرورة العمل والعلاقات الاجتماعية للإنتاج حيث تظهر قيمة العمل في تحريك البضائع والتبادل، فتربط بين فكرة ماركس عن حركة النقود، ونظام التبادل، وبين نظرة النقد المعاصر للعلامة وحركة المعنى حيث إن العلامة في المجالين ترمز إلى معنى أو قيمة مجرّدة[16]. ودائما في إطار فكرة الاستبدالات تشير إلى مفهوم فرويد للعب الاستبدالي من خلال الحلم، الذي هو من حيث الباطن فكرة، ومن حيث الظاهر مجرد هيروغليف وهي تؤكد جدّة الفكرة عند فرويد حين ميّز بين الحكم وعمل اليقظ[17].

إن هذين السندين النظريين جعلاها تنظر إلى السيمياء باعتبارها إنتاجية (comme productivité) ومن خلال فكرة الاستبدالات (Paragrammes) بنت مفاهيم شكلت الإطار النظري للبحث السيميائي عندها مثل النص الظاهر (Phenotexte) والنص المولد (Génotexte) والتناص (Intertexlualité) والصيغة (Formule).

لقد كان من بين ضرورات إنشاء نظرية سيميائية أدبيةعند كريستيفا هو تخطي المستوى التعييني الذي تفرضه الدراسة الشكلية حين تقف عند مستوى العلاقات الخاصة بالبنيات اللسانية دون المرور إلى العلاقات الأكثر تعقيدا في الأنظمة المدروسة. لذلك نراها تشيد بدور جماعة "تارتو" (Tartu) في دراستها الأنظمة الثانوية (Systèmes modelerants secondaires) باعتبارها علاقات من الدرجة الثانية، كالإيقونات والنوتات الموسيقية والألغاز وربما تكون هذه الأنظمة الثانوية هي ما يسمح للسّيميائيات بتجاوز اللسانيات ولا يكون التجاوز بهذا فحسب، وإنما -وباعتبارها تتقاطع مع كل العلوم ولا تخضع لمنطق نهائي، وتسمح بتعدد التأويلات- فإنها تعتمد أيضا على الرياضيات، وهي هنا تلتقي مع غريماس الذي تنقل عنه أن السيميائي يجب أن يكون رياضيا أكثر منه لغويا[18] ذلك أن الرياضيات تمكّننا من الكشف عن القوانين التي تتحكّم في البنيات داخل عالم الكلام، مماّ يؤدي إلى شكلنة الخصائص المنطقية، وبناء نمط منطقي جديد استنادا إلى الصور اللانهائية للغة الشعرية[19].

لم يكن التحليل البنيوي كافيا لرصد كيفية اشتغال الدليل، فضلا عن رصد قضايا الدلالة بتعيين مكان خاص بها بعدما تم إقصاؤها بحجة عدم القدرة على قياسها. ولقد وجدت في التصوّرات المذكورة ومفاهيمها المختلفة ما هو كفيل بفهم كيفية اشتغال العلامة والنص باعتباره نظاما دالا ضمن مختلف الممارسات الدالة، لكنه يختلف عنها باعتباره ممارسة ثورية تحطّم الوحدة التي تفرضها السلطة التي هي اللغة، ليشكّل عالما من الاشتغال الدلالي أو التوالد اللامتناهي الذي لا يتوقّف نحو اللغة وعبرها، ولا يمكن تحليل كيفية اشتغاله باعتباره مجموعة من الملفوظات، أو نسقا دالا منفردا، بل مجموع الأنساق التي تنفلت من المعنى والموضوع المسطّح، لأن اشتغال الدلالة فيه خاضع لنظام معقّد تتوالد من خلاله الدوال، وتتغيّر

المدلولات وتتبدّل بطريقة يصعب وصفها إلا من خلال رصد حركة التغيّرات تلك باعتبارها نظاما استباليا.

ولكي تؤدي السيميائيات دورها تستند جوليا إلى أطروحة بورس في أن تكون نقطة تقاطع مختلف العلوم، كالمنطق والرياضيات، ولذلك هي تقول «نحن مدينون فعلا لشارل ساندرس يورس بالاستخدام الحديث لمصطلح السيميائيات»[20] وهي وإن كانت تتفق مع بورس في ضرورة انبناء السيميائيات على المنطق، إلا أنها تركز على منطق جدلي استنادا إلى الفلسفة المادية التي ترى أنها تخلّص النموذج اللساني من سطحيته، وتكشف عن عمق العمليات المسؤولة عن تشكّل الدلالة. وإن كانت ترى أن السيميائيات لا بد أن تقوم على النموذج اللساني الذي يمكن أن يصبح النموذج العام لكل سيميولوجيا، وهي هنا تستند إلى أطروحة بارث الذي اعتقد أن اللسانيات قادرة على تفسير مختلف الأنظمة الدلالية، ولعل ذلك ما جعلها كذلك تستثمر إشارة دوسوسير في تنبّئه بانضواء السيميولوجيا تحت علم النفس العام، أي انضوائها تحت نظرية عامة للاشتغال الرمزي، ولذلك فهي تقع في تقاطع عدة علوم، ويكون موضوعها صيغ الدلالة وقوانينها، أي العمليات الدالة بمفهومها الواسع، ولذلك ترى أن إقامة علم خاص بالنص هو «أكبر من أن يكون سيميولوجيا، أو سيميائيات، فهو ينبني كنقد للمعنى ولعناصره وقوانينه ويتأسّس من ثمة كتحليل دلالي»[21].

إن التحليل الدلالي (semanalyse) هو جزء من منهج فلسفي أعادت به جوليا العلاقة بين الفلسفة والعلم بعد القطيعة التي حصلت بينهما، وهكذا يصبح هذا التحليل نفسه مجالا لتقاطع العلم والفلسفة، من أجل تجاوز السيميائيات الواصفة إلى التحليل الدلالي الذي يتيح مجال البحث عن العمليات التي تربط الممارسات السيميائية، بالذات والتاريخ، وتجاوز الانغلاق، ولا بأس أن تقوم على الشكلنة التي لا يسعى إليها لغاية بل كوسيلة

للتحليل والتفكيك، وتجاوز النموذج العام الذي يصلح تطبيقه على كل الأنساق الدلالية، كما يعتني بالخارج باعتباره نسقا دالا أيضا .

لقد جاءت نظرة جوليا كريستيفا كرد فعل على كل نزعة علمية أو إيديولوجية، لتعيد الاعتبار إلى المجتمع والفكر والذات، وإعادة اللحمة لعلاقة اللغة بالعلوم الاجتماعية وبذلك ستتمكن السيميائيات من استرجاع بعض الممارسات الدالة المغيّبة والمهمشة في الثقافة الأوربية، تلك الممارسات التي عدّت غير منطقية مثل السحر والشعر والموسيقى والرسم، وغيرها من الممارسات التي أبعدتها ثقافة الإيديولوجيا والعلم، الأمر الذي يسمح للسيميائيات بالامتداد، نظرا للتشاكل القائم بين المجتمع ومختلف الممارسات السيميائية، ويجعل السيميائي بحاجة إلى الرياضيات ليكوّن لغته الاستدلالية التي يحتاج إليها في عملية التأويل، كما يقتضي الاستناد إلى علم النفس الذي يقدم جهازا مفاهيميا يساعد على تحليل المجاز داخل النص، أي كيفية إنتاج الدلالة، كما تساعد الرياضيات والمنطق واللسانيات على صياغة النماذج من أجل جعل التاريخ قابلا للتصوير والتشكيل. وهي في ذلك تستند إلى ماركس في جعل خطاب السيميائيات العلمي قادرا على صناعة نماذج للاشتغال الاجتماعي للممارسات السيميائية[22] ولعل هذا ما جعلها تؤكد العلاقة الوطيدة بين المعنى والزمن، وبوحي من إدراك بارث المبكّر لعلاقة المعنى بالموضة، باعتبارها ممارسة عبر لسانية تمكننا من إعادة بناء نظام المعنى، يغدو تحليل الموضة تحليلا للمعنى، وهي تعرض إلى رأي دوسوسير في القضية حين يعتبر الدال ذا طبيعة سمعية صوتية، يحدث في زمن واحد منعزل، منفرد، وهذا الزمن يمكن الإمساك به وقياسه، لكنه زمن مبتور عن الجدلية مع الفضاء، وسيرورته خطية؛ في حين، أن إدراك المعنى وهو يتغذى من الزمن يجعل الكلام على حد بارث لا يدل إلا استنادا إلى مخزن الذاكرة الثقافية واللغوية، وتغدو المصطلحات المختلفة بمثابة

الاحتياط بالنسبة للمعنى، وكلما كان هذا المخزن منظما كان نداء العلامة قويا، وفهمها ممكنا، وإذا كانت قوة الدلالة ترتبط باللحظة الآنية، فإنها تبدأ في التراجع تدريجيا، حتى تصبح قديمة شيئا فشيئا[23].

إن البحث السيميائي الذي بشّرت به كريستيفا يقوم أساسا على فهم البحث اللساني من أجل تجاوز تناقضاته، وفضح عدم كفايته لدراسة العلامات في النص؛ لذلك لجأت إلى جهاز مفاهيمي متنوع، واستعانت بأنماط الكتابة الجديدة من خلال أسماء أبرز متبنيها، مالارميه وفيليب سولرس، وإلى أسماء علمية كديريدا وبارث وإلى الفن الإيمائي عند اليونان والرومان والصين وغيرها من نماذج اللغات والعلامات كل ذلك من أجل بناء سيميائية عدّتها بحثا، أحيانا، وتارة علما وتساءلت هل هي علم نقد أم نقد للعلم.

3. تعريف السّيميائيّات

في مواضع متفرقة من كتاباتها الأولى تعطي كريستيفا تعريفات للسيميائيات استنادا إلى عدة اعتبارات هي :

1- فمن حيث الوظيفة الملقاة على عاتقها، وبعد عرضها رأي بارث الذي اعتقد أن موضوع العلامة مهما كانت طبيعته، إشارة أو صوتا أو صورة، لا يمكن أن يفهم إلا بواسطة اللغة، ترى أن السيميائيات هي إنتاج نماذج أو شكلنة، كما تنتج الأنظمة التي تتخللها[24]، وبتعريفها للسيميائيات على أنها علم لإنتاج النماذج تكون قد وضعت خصوصيتها التي تميّزها عن بقية العلوم، على الرغم من أنها ليست علما كباقي العلوم، فهي عندها نقطة التقاء علوم متعددة كالمنطق واللسانيات والرياضيات وعلم النفس، وهي بحث مستمر يراجع نفسه باستمرار، ولا تتوقف عند ذاتها، «فبعد أن تستحوذ على النماذج اللسانية والرياضية والمنطقية باستعمالها،

تتجاوزها لتؤسس نفسها كنقد. إنها تكشف لنا كيف يولد العلم داخل الأيديولوجيا»[25].

2- أما بالنظر إلى موضوعها ترى كريستيفا أن السّيميائيات هي دراسة الاستبدالات (étude des paragrammes) لأن قانون الاستبدال هو فعل الدال في أي نظام دلالي، وهو ما يجعل السيميائيات قادرة، من خلاله، على تأسيس نظرية للاشتغال الرمزي يتجاوز البنية الرمزية (اللغة، السنن، الشرائع وغيرها) عبر رغبة جامعة في تقنين سيطرتها على الحقل الفكري السائد ووصفتها بالنزعة إلى البرمجة اللغوية الصارمة، حيث كانت لها مواصفات العالم الذي يغربل الآثار الأدبية وفق معايير صارمة لا تقبل الجدل، كما تقول عن نفسها[26].

إنّ مبدأ الاستبدال هذا الذي تؤكده "كريستيفا" في كتابها الأول وحاولت إقامة بحث سيميائي جديد من خلاله، تؤكد به آلية مهمة من إستراتيجية السيميوزيس الذي رسخه بورس، بل إنها في مواضع عدة من الكتاب تشير إلى أن الموضوع الحقيقي للسيميائيات هو دراسة الاستبدالات paragrammes ولقد استمدت المصطلح من تصحيفات " دوسوسير" anagrammes الذي تعني به «امتصاص نصوص (معان) متعددة داخل الرسالة الشعرية، ويتجلى هذا الامتصاص من خلال تقاطع مجموعة من الخطابات أو الشفرات التي تجد نفسها في علاقة متبادلة، بطرق مختلفة»[27]... ولقد رأت فيما بعد أن اللغة الشعرية تمثّل أحسن تمثيل الحركة المستمرة لنظام الاستبدال من خلال كتابها ثورة اللغة الشعرية، وهو ما يسمح بديناميكية تأويلية تنشأ عنها دلالات مختلفة.

3- عندما أحست بأن الذهاب في العلمية بهذا الشكل الصارم يفضي إلى الانسداد، سعت وخاصة في كتاب "حكم الرعب" كما تقول، إلى إنشاء

«سميولوجيا تقوم على استقراء علامات الأثر العلمي أو الفلسفي وربطها بالنظام الاجتماعي والسياسي، وهنا يكتسب الباحث صفة المبدع الذي يتمتّع بمعرفة شاملة تمكنه من النفاذ إلى عمق وجذور الظاهرة اللغوية»[28]. وهذا ما بدا في كتابها ثورة اللغة الشعرية الذي يعد دراسة أكاديمية جسدت بها مشروعها السيميائي -نظريا وتطبيقيا- حول بنية القصيدة الشعرية الحديثة والثورة التي أحدثتها على مستوى البناء السيميائي للنص الشعري.

4- أما في مرحلة متأخرة وفي حوار معها في بداية الثمانينيات فترى أن السيميائيات هي فينومينولوجيا معرفية، وهي بهذه الصّيغة لخصت بحثها في مجال السيمياء وحولته إلى مبحث فلسفي يمتد إلى Hussel من خلال Derrida الذي كان عضوا فاعلا في مجلة"تال كال"حيث كانت هذه الفلسفة تدعيما لرأي أعضائها بالرجوع إلى الأشياء ذاتها، وبضرورة أن يكون الواقع نفسه حاضرا في الإبداع الأدبي[29] ليس من منظور مفهوم الانعكاس الذي كان محل ثورة هذه الجماعة، وإنما بمفهوم النص، الذي مضت كريستيفا كأبرز أعضائها من خلاله إلى تأسيس نظرة أدبية، أو سميائية أدبية، فضّلت أن تراها «فينومينولوجيا معرفية» بحكم ما وظفت لها من إجراءات منفتحة على التحليل النفسي واللسانيات والتاريخ والإيديولوجيا، والمعارف المختلفة التي تلبي نداء النصوص. وسمحت لها بتغيير موقع الأشياء كما قال عنها بارث فهي كما يراها «تهدم دائما الحكم المسبق الأخير، ذلك الحكم الذي كنا نعتقد أن بإمكانه أن يطمئن وأن يزدهي، وإن ما تغير موقعه هو عبارة المدلول، وهذا يعني أنها تغير التفاهة، وأما ما تهدمه فهو السلطة، سلطة العلم الذي يناجي العلم فيه نفسه وسلطة النسب، هذا وإن عملها كله ليعد جديدا، ومضبوطا وإنه لم

يكن كذلك لنزعة طهرية في العلم، ولكن لأنه يأخذ كل المكان في الموقع الذي يحتله، فهو يملأه بالضبط»[30].

إن اعتبار السيميائية فينومينولوجيا معرفية تؤدي معنى النظرية العامة للدلالة، التي أقامتها على اقتراح مجموعة من المفاهيم العامة التي تتولّد الدلالة من خلالها، وفي الوقت نفسه يمكن أن تتخذ كأدوات إجرائية لأي منهج تأويلي، ولعل الطابع التأويلي هذا هو المبدأ المشترك الذي تحمله مختلف التوجهات الحديثة نحو اللغة، الأمر الذي يؤكد التقارب بين مختلف مباحث الفلسفة الحديثة ويجعل السيميائيات في الوقت نفسه مبحثا يرفع التعارض بين العلم والفلسفة، ومن ثمة بين التأويلية التي تتبناها السيميائيات والفينومينولوجيا التي تعني العودة للأشياء ذاتها. وهو ما بدأه بورس في مشروعه الذي أسسه على الظاهراتية والتأويل جوهر السيميوزيس.

إن فينومينولوجية البحث السيميائي، ليست، في نهاية الأمر، سوى تجسيد لتوجّه مجلة تال كال التي يدلّ اسمها "كما هو" على توجّه «يتميز بالفهم، بفهم الكائن الكينونة، ذاته، أي «فهمه على ما هو عليه»[31] وكريستيفا بإطلاقها هذا الوصف على السيميائيات تكون قد أكدت أن السيميائيات ليست مجرد منهج، وهذا التصور يوحي بتبني رأي غادامير الذي يرى أن على التأويل أو العلوم الإنسانية التحول إلى الفينومينولوجيا[32] وكل ذلك من أجل تقويض ثبات المنهج وسطحيته، والغوص نحو الذات والتاريخ اللذين لا يمكن التوصل إلى أي حقيقة إلا من خلالهما، ولذلك رأت أن اللغة الشعرية وهي تستوعب الذات والتاريخ يمكن أن تقدم أيضا فهما عميقا لهما من خلال نشاطها الاستبدالي القائم على التأرجح بين الظاهر والباطن.

4. اللّغة الشّعريّة وسيرورة الدّلالة

اكتشفت كريستيفا في الكتابة الشعرية الحديثة عند ملارمي ولوتريامون مشهدا لا يحتمل التصنيفات الثنائية التي يفرضها المنطق الثنائي، مشهدا مغايرا ترسمه اللغة الشعرية غير منظور إليها كمعطى أو منتوج ولكن كممارسة وعملية إنتاج للمعنى قائمة على علاقات معقدة، وهذا الفضاء الدال هو ما أطلقت عليه اسم الاستبدال الذي تعجز المناهج السابقة عن معاينته، ولذلك يتولى الجهاز المنطقي مهمة دراسته وذلك بالكشف عن طبيعة علاقات الاشتغال تلك وآلياته من نفي كلي أو جزئي، وهو ما عبرت عنه فيما بعد بمصطلح التناص، ومن ثم يتم تجاوز الدراسة الشكلية الصّارمة والنزعة التأملية على حد سواء.

ونتيجة لطرق الاشتغال الشعري في الثقافة الغربية، وأساليب معاينته سعت إلى بناء سيميائيات دعتها بالعامة، نظرا لقدرتها على الإمساك بالإمكانيات المجازية للغة داخل النصّ، والخصائص المنطقية للتمفصلات الدلالية داخل النص الشعري. إن الدلالة التي تبدو موضوعا غير قابل للملاحظة يمكن القبض عليها باعتبارها نتاجا لعملية تنسيق نحوي للوحدات المعجمية واعتبار هذه الوحدات دلالية أي تفاعلا من الكلمات، وكذلك عملية مركّبة ومتعدّدة الجوانب تتمّ بين وحدات دلالية لتلك الوحدات المعجمية والآثار التي تفرزها حين تتمّ إعادة تشكليها وتوزيعها باعتبارها طرفا في العملية الاستبدالية داخل النص[33] ولذلك ستكون مهمة التحليل الدلالي هي تفكيك الوحدات الدالة، من أجل إظهار هذا الفضاء الاستبدالي؛ لذلك، لا بدّ من النظر إلى العلامة باعتبارها "عنصرا مرآويا يعكس عملية توالد داخلية تفتح نوعا من الرؤية المركّبة، التي يصبح بفضلها النظر إلى النص ليس مجرد دلالة متموضعة في مدونة لسانية، وإنما هو

فضاء دينامي، ويكون هدف التحليل السيميائي هو الكشف عن كيفية تمظهر هذه الدينامية في شكل أدلة.

إن تتبع حركية الدلالة يجعلنا ننظر إليها كصياغة منطقية تمكننا من وصف التغيرات والتبدّلات التي تتعرض لها اللغة، مماّ يسمح بالنظر إلى النصّ كعملية صيغية تستلزم تأرجحا متواصلا بين مستويين هما ما أطلقت عليهما النص الظاهر (Phénotexte) والنص المولّد (Génotexte) فالنص الظاهر : هو النص في تمظهره الفعلي والمادي، إنه المساحة التي تتجسّد فيها الأداة المادية، فهو فضاء لتبئير مسار الدال، وعند وقوفنا عنده كنص مطبوع نكون إزاء توقف إنتاج المعنى، وعلى الرغم من الاكتمال الذي يلازمه كنص مطبوع، فهو يحتوي على عنصر مرآوي لإنتاج المعنى وتولّده الخاص، وهو ما أسمته الصيغة (formule) التي تمكن النص الظاهر من عدم إعطاء المعنى النهائي ما دمنا مضطرين من أجل الدخول إلى معنى النص للعودة إلى بداية تكوّنه وهي وإن كانت تمثل تقليصا للمعنى في السياق الظاهر، فهي تعدّ النقطة التي تحدّد النصّ المولد.

أما النص المولد (Génotexte) فمرتبط بعملية التكوين والتوليد والإنتاج فهو يمثل مسار توليد وإنتاج الدّلالة بكل إمكاناتها الخطابية، ومساراتها الرمزية والإيديولوجية، إنها اللانهائية الدّالة، أي أنها تمثّل كل الدلالات الممكنة[34].

إن مستوى النص الظاهر والمولّد، يشبه ما يشار إليه عند الفلاسفة بالوجود بالقوة والوجود بالفعل، ذلك أن الوجود بالقوة هو مستوى الإمكان الذي يدفع بالرموز والإيديولوجيا بأن تتجسد وتتمظهر في النص الظاهر. وبموجب هذين المستويين والمظهرين يكون النصّ في المستوى الصّيغي غلافا لإنتاجية كامنة في المستوى الأول، وهذا ما يجعل المحلل السيميائي يتجاوز الإدراك التقليدي للنص باعتباره ملفوظا منجزا إلى اعتباره سيرورة

إنتاجية أو ممارسة أو حركية وكلّها مصطلحات تعبّر بها كريستيفا عن ضرورة تجاوز المعرفة النقدية والأدبية التقليدية التي قدمت النص الأدبي إماّ بوصفه تعبيرا عن واقع، أو مجرد بنية لسانية مغلقة.

إن النص اشتغال عبر لساني يعيد توزيع نظام اللسان بالربط بين كلام هدفه الأخبار المباشر، وأنماط أخرى من الملفوظات السابّقة عليه أو المتزامنة معه فهو إنتاجية قابل للتنازل وفق مقولات منطقية وليس لسانية خالصة[35] ما دام يقوم على علاقة إعادة التوزيع هذه، ويقوم على تقاطع نصوص أخرى، إنه يقترب مما سماّه السميائيون الروس بالنظام المنمذج الثانوي الذي يلي النظام الأول المتمثل في اللغة التعيينية، بمعنى أنناّ نلمس فيه بعدا مكمّلا للبنية اللّسانية أي البنية التي تحول اللغة إلى نص من خلال العلاقة العائدية (anaphorique) وهي علاقة دلالة إضافية تتجاوز العلاقة السببية التي تجعل الكلمة مجرّد نموذج علاقة يفرضها العقد الاجتماعي، في حين ما يؤسس نظام العلاقات هو امتدادها، أي الدور الذي تلعبه العلامة مقارنة بعلامات أخرى[36] ولذلك تربط كريستيفا الامتداد هذا، مثلما رأينا، بالزمن وترى أن المعنى يتغذى بما تختزله الذاكرة من احتياطات المعنى.

5. سيميائيّة كريستيفا والمنهج

لقد أقر رولان بارت بأهمية جهود كريستيفا في صياغة سيميائية الدلالة، ولعل ما يؤكد هذه الصياغة هو جملة المفاهيم التي تعد أدوات للتحليل لا تكرّس التشابه بقدر ما تعطي فرصة لكل قارئ لكي يتواصل مع الدلالة قبل أن يكشف عنها كمنتوج. وهنا يصبح المنهج لا يقصد إليه من أجل نتائجه ولكن من أجل الوعي بمنطق اشتغال اللغة ومتعة الكتابة، ذلك أنه كما يقول رولان بارت «يجب على المرء في لحظة من اللحظات. أن ينعطف عن المنهج، أو أن يعامله من غير أفضلية تأسيسية كما لو أنه صوت

من أصوات الجمع؛ إنه يشبه رؤية ومشهدا مرصعا في النص. النص الذي يؤخذ في مجمله، هو النتيجة الوحيدة "الحقيقية" لكل بحث»[37]

إن في مفاهيم مثل النشاط الاستبدالي وآلياته كالتحويل والإزاحة والقلب، والمجاز والصورة والتناص والنفي وغيرها ما يتطلب نوعا من المقاربة الضخمة التي لا يمكن أن تلخّص النص بأن تفرض عليه أن يتوقف عند دلالة معيّنة. وهذه المقاربة الضخمة تقتضي وجود قارئ حاذق، يدرك أن النص هو كتابة مضاعفة وليس وسيطا بين الواقع أو الكاتب واللغة، ولقد قادت طروحات كريستيفا هذه بارث إلى ما سماه بمقاربة اللذة، التي ينبغي أن يكون كل «خطاب على النص هو نفسه سوى نص»[38] وهو منعرج مهم في البحث السيميائي الذي لا شك أنه استمرارية لجهود بورس ودوسوسير على السواء، وإذا كان من الثابت أن بارث يدين بالكثير لتلميذته، فإنها أيضا تدين له في تصوراتها للدلالة، إضافة إلى أن تبني طروحات علم النفس وتوجهات لاكان، خاصة، والنظرية المادية، قد أدى إلى بروز تمفصلات معقدة وسمت البحث السيميائي لدى كريستيفا، عبرت عنه بالفينومينولوجيا المعرفية التي يمكن النظر إليها على أنها إحدى قطائع البحث اللساني المعاصر، بعد الأسئلة الإحراجية التي واجهها متبنّوها، ولعل أهمها هو ما الذي يمكن للسانيات أن تقدمه للأدب وللدلالة؟ على الرغم من أن غريماس، وفي نفس الفترة تقريبا، كان قد أسس لمشروع لساني للدلالة، كتأكيد على أننا من النموذج اللساني ذاته، يمكن أن نعاين مسار تشكل الدلالة، ولذلك وجدنا معظم مفاهيم غريماس الإجرائية تنحدر من اللسانيات بمدارسها المختلفة، ليؤكد اهتمام اللساني بمسألة المعنى.

إن وضع النموذج اللساني موضع تساؤل عند كريستيفا لم يكن إلا من أجل تصور أعمق لمسالة الدال؛ ولذلك لم تسع إلى البحث عن مدونة أخرى،

وكان التمسك باللغة شرطا أساسا لإعادة النظر في أي طريقة للبحث فيها، وهذه الطفرة يمكن ملاحظتها من خلال الاهتمام بأدب الخيال وباللغة الشعرية خاصة، ولعل هذا ما يميّزها عن السيميائيات السرديّة.

ولعل اختيارها مالارميه ولوتريامون كممثلين للثورة الشعرية في القرن التاسع عشر، لم يكن إلا من أجل التعبير عن الأساليب التي تتجاوز بها النمطية والتقليد، وذلك بواسطة العمل بالتمايز والتضيد والمجابهة التي تحدث داخل اللغة الشعرية، وهو ما أطلقت علية مصطلح التدليل (signifiance) لأن الشعر، واستنادا إلى "فاقنر" wagner «يتولد عن علاقات بعيدة كل البعد عن تلك الروابط المنطقية التي تنشأ عنها العلاقة بين الألفاظ والمعنى»[39] وهي علاقات راحت كريستيفا بعيدا في شرحها وتوضيحها، وإن كانت تعترف أنها تستعصي على التوضيح التام ؛لأن الأساليب والأدوات التي تجسّد ثورة اللغة، كالتكثيف والإزاحة والنفي وغيرها، هي التي تساعدنا على التعرف عن الأشياء التي هي موجودة وليس علينا خلقها، وتحيلنا إلى قول مالارميه حين قال : «علينا أن نفهم العلاقات الموجودة بين الأشياء؛ لأن خيوط تلك العلاقات هي التي تشكّل الأسطر الشعرية وتحدث الانسجام بينها»[40] ومن هنا، يمكن أن نفهم سر تأكيدها على محاور الوصل اللغوية والصوتية، بالخصوص، لأنها تسمح بدفع السيرورة الدلالية ثم بعثها من جديد، في اتجاه محطات زمانية أخرى، حيث تحدث علاقات تأثير وتأثر بين مختلف الصيغ الصوتية والصرفية والتركيبية، وهو كما نلاحظ تحليل لساني يمكننا من الكشف عن بنية النص التي يتميّز بها عن غيره، ويسمح للمحلل بأن يكتشف السيرورة اللغوية التي يتشكّل منها النص، على الرغم من أنها تعترف بنسبية الدراسة الوصفية، وأنه لا يمكن إيجاد لغة واصفة لنص ما، دون أن تتأثر تلك اللغة الواصفة بطبيعة العمليات السيميوطيقية التي تتخلل المدونة الموصوفة مما يعني أن لغة النص المدروس ستؤثر حتما

في لغة من يحللها؛ فحضور الأنا يظل واقعا حتى وإن تدخّل المخاطب والغائب فيها، إنما يسمح حضورهما، فقط، بتغيير اتجاه السيرورة الدلالية، ولذلك اعتبرت على غرار جاكوبسون الضمائر بمثابة محاور وصل ضمن السيرورة السيميائية.

إن الاهتمام بشبكة العلاقات اللغوية المختلفة ليس جديدا في البحوث البنيوية والأسلوبية، خاصة، غير أنها جعلته محطة مهمة للولوج إلى محيط النص الخارجي الاجتماعي والاقتصادي والتاريخي، ولذلك ربطت انتقال الثورة الشعرية في فرنسا من ملارميه إلى المستعمرات الفرنسية بظاهرة الاستعمار، كما ربطت سيرورة إنتاج المعنى، أو سيرورة التدليل التي تتحقق أثناء الثورات والمراحل التاريخية الحرجة التي تقوض فيها الأنظمة الأحادية الثابتة والنمطية، بسيرورة الدلالة في النص الأدبي التي تقوض التحجر وثبات المعنى ونهائيته، كما قابلت بين مفهوم الطبقة البروليتارية التي كان يأمل أن يجد فيها ماركس ثورة مستمرة تنقد نفسها باستمرار[41] وبين ثورة البحث السيميائي حين رأت أنه على السيميائيات أن تنقد نفسها باستمرار، فبالنقد تتولد السيرورة السيميائية وترفع الدلالة عن التحجر والانعزال.

إن فهم طبيعة النص عند كريستيفا هو مناط التأسيس لأي بحث سيميائي شامل قائم على اعتبار الدلالة التي، وإن كانت تقوم على صياغة منطقية ورياضية، فهي تسمح للغة بأن تكون في حالة استبدال مستمر، ولذلك ترى أن للتحليل النفسي والمنطق والرياضيات دورا في صياغة النظرية السيميائية العامة؛ وإذا كان التحليل النفسي كفيل بالكشف عن الطاقة المجازية في اللغة الشعرية، فإن المنطق والرياضيات يقدمان الوسائل الإجرائية التي تحلل بها أساليب اشتغال اللغة في النص، أما التاريخ والفلسفة والعلوم الاجتماعية، فبها يتمكّن المحلل السيميائي من تحديد تموقع النص باعتباره تقاطع ملفوظات مختلفة.

لا شك أن هذه الترسانة من المفاهيم والإجراءات تمكّن الدارس من تجاوز النقائص التي كرّستها الدراسات المحايثة والتي تحصر النص في إطار نموذج لغوي ثابت لا يعترف بالتنوّع والاختلاف كما أنه يلغي التاريخ والذات، وينظر إليه على أنه شبكة من الترابطات، وأنه ممارسة دالة ضمن الإنتاجية الجماعية، ولكونه كذلك، فإن مهمة المحلل السيميائي تكمن في إدراك العلاقات ووصف مظاهرها وتحليلها في علاقاتها بظروف إنتاجها، ثم تأويل النص كاشتغال رمزي داخل الثقافة التي أنتجته أو التي يتداول ضمنها.

ومن ثمة، فالبحث السيميائي عند كريستيفا ذو بعد تداولي، وكما شكّل هذا البعد منعرجا حاسما في الفلسفة الغربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عند شارل ساندرس بورس، شاءت الظروف أن يكون هذا البعد في النصف الثاني من القرن العشرين منعرجا حاسما أيضا في الدراسات اللسانية الحديثة، والسبب البديهي، يكمن في أن هذا البعد عنصر مكوّن في اللغة، فلا غرو أن يكون عنصرا ملحا في بناء أية نظرية تقوم حول اللغة، ومن هنا يمكن أن نفهم طبيعة التحليل السيميائي عندها الذي هو تحليل لساني بلاغي، وإن كان يتجاوز جدار اللغة ليستلهم الشمولية من النظرية، ولذلك تقول أنه تحليل مسلح «بأدوات صارمة لاستبطان ملامح الفكر وحميمياته، والمؤثرات التي تخضع لها، وإذا كانت ثمة طوباوية في الجسد -اللّغـة- المعرفة، فإن أبحاثي تتحول إلى فينومينولوجيا معرفية انطلاقا من إشارات اللغة»[42].

أخيرا، إن من يعاين استراتيجية "جوليا كريستيفا" في بحثها السيميائي، ويستحضر بعض معالم التفكير السيميائي في تراثنا العربي، تتراءى له مساعي علماء العربية في دراسة النص الشعري، كما هو الأمر

عند عبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني وغيرهما، فتوخّي معاني النحو في معاني الكلم، ومفهوم العامل النفسي، ومفهوم النظم والمجاز، وغيرها من المفاهيم، يجعلنا نقف وقفة نتأمّل ندرك من خلالها إلى أي مدى استطاع هؤلاء أن يفهموا كيف تشتغل اللغة الشعرية في النص، بل لقد أدركوا «أن الكلمات وحتى التراكيب لا تتصف بسمة الثبات ولا تدوم على حالة واحدة قارة، كما أن أحكامها ومعانيها النحوية التي تأخذها في سياق ما ليست بالصفة اللازمة فيها»[43] وإن مثل هذا الطرح تطلب منهم، وبدون شك، مراجعات مهمة لمفهوم الشعر واللغة الشعرية ومفهوم الدلالة واشتغال المجاز داخل النص، ولقد أدركوا أن أي حديث عن اللغة لا بد أن يبدأ من فهم المنطق الذي بنيت عليه، لأن فيها كما يقول الجرجاني ما هو موجود فيها بالقوة وضامر فيها، ولا يظهر إلا بعد تدبر وقوة إعمال للفكر[44].

ولا شك أن جوليا كريستيفا قد أعملت الفكر في الكشف عن أساليب اشتغال اللغة الفرنسية في شعر القرن التاسع عشر، وأدركت أن أساس العلاقات بين المفردات والتراكيب في الشعر ينجذب إلى علاقات مجازية عبّرت عنه بفضاء الاستبدالات، وإذا كنا اليوم عاجزين عن إدراك هذه العلاقات وهي تشتغل بها لغتنا العربية في النص الشعري، فحري بنا أن نكشف عن جهود علمائنا في إدراك طبيعة هذا التجاذب، والكشف عنه وإيضاحه، وهذا ما سنسعى إليه في بحث مستقل في إطار طموحات مركز ترقية اللغة العربية، إن شاء اللّه تعالى.

الإحالات

1- جوليا كريسطيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، ط 1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1991 ص 7.

2- علم النص، ص 8.

3- Julia kristeva, Semiotiké, Recherches pour une sémanalyse, Editions du seuil, 1969, p 9.

4- جوليا كريستيفا، علم النص، ص 20.

5- علم النص ص 14.

6- voir Recherhes p 27.

7- يراجع حسين الواد، مجلة تال كال "كما هو" والحداثة الأدبية، مجلة علامات ج 42 م 11ديسمبر 2001، ص 63.

8- فؤاد أبو منصور، النقد البنيوي بين لبنان وأوروبا، نصوص، جماليات، تطلعات. ط1، دار الجيل بيروت 1985، ص 322.

9- رولان بارت، هسهسة اللغة، تر : منذر عياشي، ط1، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، 1999 ص 248-247.

10- يراجع حسين الواد، مجلة تال كال "كما هو" والحداثة الأدبية، ص64.

11- يراجع رولان بارت، هسهسة اللغة، ص 246.

12- يراجع فصل : (Expansion de la sémiotique in (Sémiotiké .

13- voir Julia kristeva;La Révolution du langage poétique, l'avant-garde à la fin du XIX siècle; Lautréamont et Mallarmé, édition du seuil. Coll. Tel quel, 1974, p 28-38.

14- Révolution du langage poétique.

15- فؤاد أبو منصور، ص 348.

16- Voir Recherches, p 44.

17- ibid p, 44.

18- Recherches 56.

19- يراجع علم النص، ص 85.

20- علم النص، ص، 15.

21- علم النص، ص، 16.

22- Recherches, p 55.

23- voir le sens temporel in Recherches, p 72.

24- voir Recherches, p 174.

25- Recherches, p 30.

26- يراجع حوار فؤاد أبو منصور معها، ص 146.

27- يراجع علم النص ص، 78.

28- فؤاد أبو منصور ص، 346.

29- يراجع حسين الواد، مجلة تال كال كما هو والحداثة الأدبية، ص 65.

30- رولان بارت، هسهسة اللغة، ص 246.

31- جان غراندان، المنعرج الهرمينيوطيقي للفينومينولوجيا، ترجمة وتقديم عمر مهيبل، ط1، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، لبنان/ الجزائر 2007، ص 154.

32- يراجع المنعطف الهيرمنيوطيقي، ص 156.

36- يراجع علم النص، ص 80.

34- voir : www. signo Julia Kristiva.

35- يراجع علم النص، ص 21.

36- voir : Recherches p, 72.

37- رولان بارت، هسهسة اللغة، ص 439-438.

38- هسهسة اللغة، ص 96.

39- Révolution du langage poétique, p 214.

40- ibid, p 136.

41- Ibid, p 377.

42- حوارها مع فؤاد أبو منصور، النقد البنيوي بين لبنان وأوروبا، ص 347.

43- نور الدين محمد دنياجي، التفكير اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني، قراءة في اللغة ولغة الخطاب، منشورات مجموعة البحث في علوم اللسان العربي، ط 1 مطبعة النجاح البيضاء 1997. ص 127.

44- يراجع المرجع نفسه، ص 53.